غاية الإحكام

في

أحاديث الأحكام

تأليف

الإمام محب الدين أبي جعفر أحمد بن عبد الله الطبري

المتوفى ٦٩٤ هـ

تحقيق

الدكتور حمزة أحمد الزين

مدير عام المركز الإسلامي لخدمة الكتاب والسنة
بمكة المكرمة وفروعه
ومدير البحث العلمي بأوقاف دبي سابقاً

الجزء الأول

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٤ م - ١٤٢٤ هـ

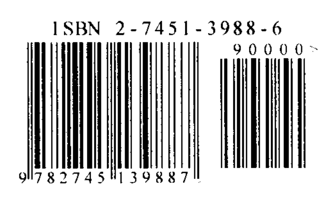
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3988-6



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بســـــمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ

الحمد لله العليم العلام، الذي أنزل القرآن وبرأ الأنام، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفضل مخلوق وأعظم إمام، ومعلم البشرية الأصول والأحكام، ورضي الله تعالى عن تابعيهم ومن تبعهم بإحسان ما مرت الليالي والأيام.

أما بعد فإن الله قد حفظ كتابه الكريم حيث قال: ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾، وحفظ سنة النبي ﷺ بأن قيض لها النقلة العدول الذي حفظوا السنة وأتعبوا أنفسهم في المحافظة عليها والدفاع عنها، فكانوا دائمًا يكشفون كل كاذب ووضاع، ويبينون خطأ الناقل الغافل، وانتحال الدخيل الجاهل، وما زالت السنة مرفوعة ترفرف في أنحاء الدنيا يهتدي بها العقلاء ويتمسك بها العلماء، وما زال علماء السنة يذدون عن حياضها الغرباء، ويقاتلون الدخلاء بألسنتهم وأقلامهم ومصنفاتهم، وما زالوا يخرجون السنة إلى النور متمثلة في مصنفات الحفاظ التي ما زال الله سبحانه وتعالى يقبض لها أناسًا يخرجونها للناس ويتلقفها أصحاب الاختصاص، حيث يفرحون بها أكثر من فرحهم بأولادهم وأموالهم.

ونحن اليوم نقدم للمسلمين مصنفًا من هذه المصنفات التي كانت في طريقها إلى الضياع، بعد أن بحثنا عنه في مكتبات العالم وجمعناه من هنا وهناك، عسى الله أن يجعلنا من حاملي هذه السنة ومبلغيها، كما نسأله تعالى أن يجعلنا من وُعاتها وفقهائها، وأن يرزقنا النضارة التي وُعد بها أهل السنة، كما قال عليه الصلاة والسلام «نضر الله امرءًا سمع مقالتي فوعاها وأداها كما سمعها فرب مبلغ أوعى من سامع» صدق رسول الله ﷺ.

وإذا كانت النضارة يتميز بها حملة السنة فإن الحديث يشير من طرف خفي أن الفقه في السنة أظهر نضارة وأكثر.

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا يجمع بين السنة وفقهها، فيقدم لنا الأحاديث ضمن باب واحد، ثم يبين الفقه الذي فيها، ويغوص في معانيها غوص المبلِّغ الفقيه، ثم يخرج لنا بعد ذلك درر الفقه ولآلئه التي نراها بأعيننا. ويرينا كيف يفصل اللؤلؤ عن صدفه وينصّع الدر من شوائبه، ويميز جُمانه عن دانه وكبيره عن صغيره، ثم ينظمه

أمام عينيك في عقد يأخذ بالألباب وبريق يخطف الأبصار، فسبحان من أنزل الكتاب وعلم نبيه فصل الخطاب، وهدانا إلى جادة الصواب، وفضلنا به على الأمم تفضيلاً، فكنا أحسن منهم سلوكًا، وأعلم منهم قيلاً.

سبب تحقيق الكتاب:

كنت منذ زمن طويل أحب أن أجمع بين السنة والفقه، وهذا ديدني والحمد لله في رسائلي العلمية - وكنت أريد كتابًا يجمع لنا هذا، ودائمًا كنت أتردد إلى دور المخطوطات أبحث عن كتاب جامع شامل يجمع لنا السنة كلها ويشرحها حتى يكون مرجعًا للمسلمين في هذا العصر. ومن خلال زياراتي لهذه المكتبات وقعت عيني على هذا الكتاب، فتصفحته على وجه السرعة، ثم رجعت إلى كتب المؤلَّفات لآخذ نبذة سريعة عنه، فعلمت أنه كتاب مهم جامع شامل اعتمد على جوامع السنن التي سبقته وشرح ما لم يشرحوه، متعرضًا لذكر آراء المذاهب الأربعة. فعلمت أنني وقعت على بغيتي، وأنني أمام كتاب يفيد المشتغلين بالسنة والفقه على مختلف أقدارهم واتجاهاتهم. ثم لما عدت إليه وجدته كذلك، وسألت الله سبحانه وتعالى أن يعينني على إخراجه.

منهجي في التحقيق:

هذا الكتاب ضخم كما نرى، وإذا أردنا أن نوفيه حقه من الدراسة والتحقيق والتخريج ودراسة الأسانيد لنفد العمر قبل أن ننتهي من هذا المراد. ولذا أردت أن أخفف على القارئ ولا أكثر التحقيقات. ونكتفي بأمرين هامين.

الأمر الأول: ضبط النص مقاربًا للكمال بحيث لا تبقى هناك عبارة غامضة أو غير مفهومة، وقد حاولت قدر جهدي لإخراج النص مقاربًا للكمال. فقمت أولاً بمراجعة المخطوط قبل طباعته، ثم مراجعته على الأصل بعد الطباعة، ولكن لما كان الإنسان لا يستطيع أن يقرأ الأمر أكثر من ثلاث مرات، وإذا قرأه فلن يرى الخطأ بعد ذلك حيث يقرأ الخطأ صوابًا. لذا أردت أن يراجع الأمر غيري، ومن هنا عهدت إلى لجنة المتخصصين بمراجعة النص ومقابلته مرة أخرى، ثم التدقيق في كل قضية، حتى يصدر الكتاب إن شاء اللّه بصورة مرضية.

ونسأل الله تعالى أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم.

الأمر الثاني: تخريج الأحاديث وضبط الأعلام، وقد اتبعت في التخريج الطرق الآتية:

أولاً: خرجت الأحاديث تخريجًا متوسطًا. لم أعتمد الاختصار ولا التطويل وذلك بالاقتصار غالبًا على العزو الذي ذكره المصنف رحمه الله تعالى، إلا إذا كان فيه بعض القصور فأخرجه من مصادر أخرى، أو ذكر مراجع غير هامة فأذكر المراجع الهامة. فقد يعزو الحديث لابن حبان مثلاً ويكون هو عند البخاري، فأنبه على هذا دائمًا، وقد يعزو الحديث للبيهقي ويكون عند الإمام أحمد أو في المصنفات الكبرى مثل مصنف عبدالرازق وابن أبي شيبة وغيرهما فألتزم بذكر ذلك.

ثانيًا: إذا كان الحديث محكومًا عليه عند الأئمة فأذكر الحكم الذي عندهم للبراءة من العهدة، إلا إذا كان الحديث مختلفًا في تصحيحه. أو كان الحديث مذكورًا في الموضوعات وله شاهد قوي فأضطر إلى ذكر ذلك ولو بالإشارة إلى مكان الشاهد في كتب العلماء.

ثالثًا: لم أذكر طرق الحديث وشواهده الكثيرة ولا ترجمة رجاله من المصدر الذي عزا له المصنف؛ لأن هذا أمر يطول. وإنما أكتفي بحكم السابقين من العلماء ولو حتى تصحيح السيوطي ومَنْ قبله كالهيثمي، ومَنْ قبلهما كالحاكم في المستدرك؛ لأن الأمر لو تعدى هؤلاء فلابد فيه من الخلاف والزلل. أو يكون مجرد استعراض للمقدرة العلمية التي يلجأ إليها الكثيرون ليخطئوا غيرهم ويظهروا علمهم، وهذا سلوك غير صحيح.

رابعًا: قمت بضبط الأعلام لأنها مسألة مهمة في الرجوع إلى أصل الحديث وقد يتوقف حكم الحديث على هذا الضبط غالبًا فالتزمت بيان ضبط هذا الرجل دون ذكر ذلك في التحقيق لعدم التطويل أيضًا.

أما الأعلام المشهورون فلا حاجة إلى ضبطهم ولا لترجمتهم، فالكتاب مطول لا يحتاج إلى تطويل.

أما عن طريقة التخريج فقد اعتمدت التخريج الذي يذكر الكتاب والباب لكن إذا كان الحديث في نفس الكتاب والباب فلا أذكر ذلك في الهامش مكتفيًا بالإشارة إلى رقم الحديث. أو الجزء والصفحة؛ لأنه إذا كان الحديث في كتاب الصلاة، وهو عند

الأئمة في كتاب الصلاة أيضًا فمن العبث أن أعيد ذلك.

فإن اختلف الكتاب والباب ذكرتهما، وقد يكون الباب مقاربًا أو مفهومًا لدى الباحث المتخصص فلا أذكره أيضًا، اعتمادًا مني على فهم المتخصص.

لكن قد يخالفني الكثيرون على فهم الباحث المتخصص. ويقول معترضًا: قد أصبح المتخصصون لا يدركون تلك الإشارات فلابد من التنصيص تمامًا حتى لا يحتار الباحث، ولكني أقول: إذا كان الباحث المتخصص لا يدرك ذلك فلا أدركه، ولا عاش حتى يدركه ولسنا مجبرين على اعتباره أصلاً؛ لأن هذا العلم إذا خاضه غير المتخصص فإنه سيجلب كارثة لنفسه أولاً، وقد يجلب كارثة للأمة كلها.

كما هو الحال الذي نعيش فيه، حيث تعرض أقوام لم يشموا رائحة العلم، فلما قرأوا بعض الكتب دون مشايخ أو على شيوخ مثلهم في الجهالة، ظنوا أنفسهم قد تعلموا وعَلِموا، بل ظنوا أنفسهم أنهم هم علماء الأمة، والآخرون لا يساوون شيئًا في نظرهم، وأن على جميع العلماء أن يسيروا في ركبهم وأن يقدموا لهم القرابين والولاء، وإلا فالويل للجميع، لقد رأينا بعض هؤلاء يدخل المكتبة وهو ابن ثلاثين أو أكثر أو أقل وهو لا يعرف كتب الحديث، ولا يعرف شيئًا عن الحديث، ثم نراه بعد أشهر أو سنوات قليلة يتصدر لكل شيء، للإفتاء وللحكم على الأحاديث ولتخطئة العلماء الكبار، حتى لقد سمع الكثيرون كيف يقول أحد هولاء: أخطأ الإمام مالك، كيف يخالف أحاديث رسول الله ﷺ بينما هو لا يعرف ما هي الحكاية، وكيف يخالف إمام حديثًا صحيحًا؛ لأنه لا يعرف شيئًا اسمه علم الدراية ولا يعرف شيئًا اسمه الأصول والقواعد، وإذا ذكرت له شيئًا من هذا وسمك بالجهل، وإن سألته عن علم الأصول نظر إليك بازدراء ليغطي جهله، وإن غصبته على الكلام قال لك: أي أصول؟ أتقصد القياس. القياس لا يجوز لأن النبي ﷺ لم يكن يقيس، أو يقول لك: أي أصول تتكلم عنها؟ الأصول كلها من الرأي والرأي في الدين باطل، فلم يكن عند النبي ﷺ كتاب أصول ولا عند الصحابة.

وهي كلمات تعلموها ودرسوها كثيرًا ليدافعوا عن أنفسهم أمام العامة، ولكي يوهموا السذَّج أن هؤلاء العلماء كلهم على باطل، وهم وحدهم على صواب، وهم الفرقة الناجية، وكل الناس في النار، وهم أصحاب العقيدة الصحيحة، وكل الناس

مشركون، وهم على الهدى وكل الناس في ضلال.

أليست هذه هي الكارثة بعينها؟ إنها كارثة لا تقاوم؛ لأنك لا تستطيع أن تتفاهم مع هؤلاء، ولا تستطيع أن تريهم الحق، حتى لو أريتهم فهم لا يعرفونه؛ لأن قلوبهم أصبحت كالكوز مجخيًا لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا، وكل هذا بسبب التطفل على العلم، ودخول العلم بلا سلاح، وأول سلاح العلم الأدب والتواضع، ثم التعلم؛ لأنه لا يتعلم قليل الأدب ولا المتكبر.

لقد كان طالب العلم قديمًا يقضي حياته في الدرس والعلم والرحلة، ثم لا يتكبر أن يجلس في مجالس العلم مرة أخرى يكتب ويستملي ويحفظ ويحافظ ويسأل ويناقش، كما فعل الإمام الشافعي حيث رحل بعد نضوجه وبعد أن اعتلى على صهوات العلم وجياد المعرفة، لم يأنف أن يجلس متعلمًا وأن يرتحل إلى العلماء.

ونحن إذ نقدم هذا الكتاب للمتخصص الباحث لا ندعي أننا أتينا عجبًا أو سبقنا إلى ما لم يسبق إليه، بل نقدم هذا الكتاب بتواضع بين يدي الباحث المسلم الذي يطلب الحق ويبحث عنه، وأقصى ما أردناه أن يخرج هذا الكتاب إلى النور وينتفع به الناس، والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سبيل الرشاد.

تمهيد

في أحاديث الأحكام

كل المحدثين اهتموا بأحاديث الأحكام؛ لأنها هي المعول عليها وهي الضرورية وعليها المدار، لذا نرى أشهر المحدثين رتبوا كتبهم على أبواب الفقه، وذكروا أحاديث الأحكام، منذ عصر التأليف إلى يومنا هذا، حتى قيل إن أول من فعل ذلك أنس مالك رضي اللَّه عنه، فقد سئل عن حديث فقال: إنه في باب الصلاة، ولقد قرأته اليوم. ومشى على ذلك التابعون ثم اتباعهم، مثل سعيد بن منصور وعبدالرزاق وابن أبي شيبة، ثم من بعدهم كالبخاري ومسلم وبقية الأئمة، ثم من بعدهم.

وهؤلاء كانوا يجمعون الأحاديث تحت باب واحد، لكي ينظر الفقيه في مجمل هذه الأحاديث، ليميز ناسخها من منسوخها ومطلقها من مقيدها، ومنهم من يورد الحديث بألفاظه وأسانيده لكي يخدم الفقيه من ناحية ثانية، كما أن منهم من يجمع أحاديث باب واحد فقط بألفاظها وأسانيدها. ليخدم المتخصص الباحث عن قضية معينة، ومنهم من يلفت أنظار الفقيه إلى سياق الحديث فيطيل التبويب مشيراً إلى ما يخدمه من ألفاظ الحديث، كالبخاري والأئمة الذين قلدوه بعد ذلك، وهذا النوع من المحدثين ألصق بالفقهاء من غيرهم، فكأنهم يوردون الحديث ثم يقولون للفقيه: انتبه إلى كذا وانتبه إلى كذا، ومنهم كأنه يأخذ بيد الفقيه ويضعها على المطلوب مباشرة، حتى لا يتعب الفقيه في البحث عن الدليل أو استخراج الدليل.

لكن أكثر المحدثين خدمة للفقهاء هم الذين يوردون الآثار مع الأحاديث وينقلون فعل الصحابة وكيفية استدلالهم، أو مخالفتهم للحديث أو اختلافهم في ألفاظه، وهذه كلها خطوط عريضة توضع أمام المجتهد كي يجتهد في الحكم على بصيرة.

ثم جاءت طبقة بعد هؤلاء تشرح ألفاظ الحديث من حيث اللغة وتنقل أقوال أئمة اللغة في كل كلمة، كما تنقل أقوال السلف في معاني الأحاديث ومراميه، وما يمكن أن يستنبط منه، لكن هذه الكتب اندثرت فلم يصل إلينا إلا القليل منها، مثل تهذيب الآثار للطبري، حيث لم يصل إلينا كاملاً، وغيره من شروح السنة المطولة.

فلما كان ذلك كذلك هب العلماء مرة أخرى يجددون هذه القضية وهي جمع الأحاديث والآثار مع شرح غريبها ومعانيها وأقوال الفقهاء فيها، خاصة بعد تدمير

بغداد في النكبة المشهورة، فكان من هؤلاء الذين جددوا وجمعوا هو الشيخ محب الدين الطبري رحمه الله تعالى، الذي جاء وأقرانه بعد نكبة بغداد، حيث لم يكن أمامهم إلا تجديد ما اندثر وإحياء ما دمر، فقام الشيخ محب الدين يجمع من هنا وهناك ويلم شتات المواضيع ويؤلفها في أبواب متجانسة متناسقة حتى إذا ما أراد الفقيه أن يبحث عن حديث وجده دون عناء ويجد كل ما يريد دون معجم أو فهرس، فيرى الحديث بألفاظه وطرقه، ويرى اراء الفقهاء مجموعة في الحديث الواحد والمسألة الواحدة، وهذا العمل يخدم الفقه من نواح كثيرة:

الناحية الأولى: أنه يضع كل الأدوات أمام الفقيه ليضعها في اعتباره.

الناحية الثانية: أنه ربما يرينا أن هذه الأدوات هي التي اعتمد عليها الفقهاء المجتهدون، وأن من أراد أن يقلدهم فليفعل إذا كان عنده الأهلية.

الناحية الثالثة: ليرى الناس جميعًا أن الفقهاء لم يأتوا بشيء من عندهم وأن أقوالهم واجتهاداتهم خرجت من هذا المعين الثري، الذي هو أساس الدين حيث لا يفهم لكتاب إلا بالسنة، ولا تفهم السنة إلا بهذه الطريقة التي نقلوها لنا بأمانة ودقة متناهيين، وليس هناك طريق آخر، فمن تنكب هذا الطريق وسلك طريقًا آخر ضل ضلالاً بعيداً.

وقد يخطر على بال كثير من أعداء المذاهب الإسلامية أنه ما دام الأمر كذلك لم يظهر مجتهدون بعد الأئمة الأربعة؟ ومنهم من يقول: إن الدين جمد على هذه المذاهب وقفل باب الاجتهاد، وكل هذا كلام باطل، أما عدم ظهور مجتهدين غير الأئمة الأربعة فهذا غير صحيح فإن المجتهدين كثيرون جدًا، لكن لما كانت آراؤهم لا تخرج عن المذاهب الأربعة، ولم تكن أصولهم تخالف أصول الأئمة الأربعة لم يجدوا حاجة في تدوين مذهب خامس، وإنما اكتفوا بتدوين الآراء التي انفردوا بها فقط؛ لأننا لو نظرنا منذ التدوين المبكر لوجدنا أن تلاميذ الفقهاء الأربعة كلهم مجتهدون فأبو حنيفة تلاميذه أبو يوسف ومحمد وزفر والحسن وكلهم مجتهدون، ومالك تلاميذه مجتهدون كالقاسم ويحيى، والشافعي تلاميذه مجتهدون كالمزني والرافعي، وأحمد تلاميذه مجتهدون كالخلال وغيره، بل جاءت طبقة أخرى بعد تلاميذهم لهم آراء منفردة ولها وجه ودليل قوي، سواء كانت موافقة لأصول أئمتهم

أو مخالفة لهم، وهذا يدل على اجتهادهم، لكن العالم الحقيقي الذي يخاف من الله تعالى ويعرف الحق، يجد أن هذه المسائل التي خالف فيها أئمته لا تصلح أن يكوّن بها مذهبًا جديدًا، فقد وضعت هذه المذاهب كل ما يخطر على بال الإنسان الفقيه المتعلم المتدين، فإذا حدثت حادثة شرعية مع أي إنسان فلا عليه إلا أن يفتح كتب الفقهاء ليجد نفس الحادثة مدونة متوقعة وقد أصدر فيها الفقهاء حكمهم الشرعي الذي أداهم اجتهادهم إليه، وقد لا يكون هذا الحكم من وضع الإمام الأول بل قد يكون من اجتهاد أتباعهم، ولذا نجد كتب الفتاوى الملحقة بكتب المذاهب، فهناك كتب للفتاوى الحنفية، ومثلها للمالكية ومثلها للشافعية ومثلها للحنابلة، وهكذا. . ، ومهما حاول المجتهد أن يجتهد في وضع مذهب جديد يجد نفسه داخل هذه الدائرة الكبيرة غير منفك عنها بحال.

لكن تبقى أحاديث الأحكام أمامنا للدراسة والمقارنة والمفاضلة نحتاجها عندما نريد أن نرجح رأيًا على آخر، أو نرى بأعيننا دليل المرجح كيف رجح هذا الرأي على ذلك الرأي.

وبعد هذا كله نقول: لا بد لقارئ أحاديث الأحكام أن يكون عنده إلمام بأصول الفقه ومصطلح الحديث، وإلا سيضل ضلالاً بعيدًا، وأول هذا الضلال تخطئته للأئمة، وأوسطه ادعاؤه الاجتهاد وأنه أفضل من المسلمين جميعًا، وآخره ـ الأسود ـ أنه هو العاقل الوحيد وأن الناس جميعًا على ضلال وأن من لم يتبع رأيه فهو كافر.

لذا يجب التحذير كل التحذير من أن يخوض الإنسان غمار هذا البحر دون أن يجيد السباحة فإنه سيغرق بلا شك، كمن يدخل الغابة لصيد وحش بلا سلاح، فلا شك أن وحوش الغابة ستفترسه، ولن يجد أحدًا يبكي عليه، ومن هنا من هذه البداية نحذر القارئ المسلم أن لا يتوغل في قراءة هذه الكتب قبل أن يتعلم مبادئ الأصول والمصطلح على الأقل، وأن تكون عنده دراية لغوية يفهم بها فحوى السنة المطهرة، ويفهم سياق الكلام، أما من لم يكن يعرف الفاعل من المفعول والحال من التمييز، ولم يسمع بالأصول ولم يدر ما المصطلح فلا يجوز أن يفتح هذه الكتب فإنها لم تصنع له، وعليه أن يذهب لمقاعد الدرس أولاً ليتعلم مبادئ العلوم الأساسية، والله الهادي إلى سواء الصراط.

المبحث الأول

المؤلف محب الدين الطبري

وفيه مطالب

المطلب الأول: حيـــاتـــه.

المطلب الثاني: عصــــره.

المطلب الثالث: آثـــــاره

المطلب الأول

التعريف بالمؤلف

أولاً: اسمه ونسبه ونسبته وكنيته ولقبه:

هو الشيخ الإمام المحدث الفقيه الزاهد محب الدين أبو جعفر: أحمد بن عبدالله ابن محمد بن أبي بكر بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن علي بن فارس بن يوسف بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبدالواحد بن موسى بن إبراهيم بن جعفر ابن محمد بن علي بن الحسين السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم الطبري المكي الشافعي، إمام الحجاز في عصره(١).

أما نسبته إلى طبرستان فإن جده الأعلى موسى بن إبراهيم هو الذي هرب إليها لما طارده العباسيون، فاختفى هناك، وحكايته معروفة في التاريخ، وظل نسله في طبرستان إلى أن ضعف نفوذ العباسيين في جزيرة العرب ومصر والشام، وأول من عاد إلى مكة هو الشيخ رضي الدين محمد بن إبرهيم بن أبي بكر بن علي بن فارس أي جد الشيخ محب الدين رحمهم الله جميعًا. وكان ذلك سنة ٥٧٠هـ، فلما قدم الحجاز زار النبي ﷺ وسأل الله عنده أن يرزقه أولاداً علماء هداة مرضيين فاستجاب الله له، فوُلد له سبعة أولاد وهم محمد وأحمد وعلي وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، فكانوا كلهم علماء وفقهاء ومدرسين.

وأما كنيته فقد ذكر المؤرخون له كنيتين: أبو العباس وأبو جعفر، ولعله كان ينادى بهما، لكن أكثر المؤرخين قدَّموا (أبا جعفر) على (أبي العباس).

وأما لقبه فكان أول لقب له: محي الدين، لكن ـ كان لشدة تواضعه يعتقد نفسه أقل من هذا اللقب، فلقب نفسه بمحب الدين، وقد صرح بهذا شيخنا محب الدين حيث قال: مشينا ذات يوم إلى المدينة زائرين، وكنا جماعة فنظمت قصيدة في مدح

---

(١) تنظر ترجمته في البداية والنهاية ١٣/٣٤٠، والعقد الثمين ٣/٦١، وطبقات الشافعية الكبرى ٨/١٨، وطبقات الشافعية للأسنوي ٢/١٧٩، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢/١٠٦، ومرآة الجنان لليافعي ٢/٢٢٤، والمنهل الصافي ١/٤٢٥، والسلوك للمقريزي ٣١١ و٨١١، والنجوم الزاهرة ٨/٤٧، وشذرات الذهب ٥/٤٢٥، والرسالة المستطرفة ١٣٢.

النبي ﷺ فلما قدمنا المدنية أنشدت القصيدة، فلما فرغت من إنشادها قلت: يا رسول الله إن من جائزتي أن يذهب عني هذا القلب ـ وكان لقبي بين الناس محي الدين وكنت أكره هذا اللقب ـ فلقبت بعد ذلك محب الدين وذهب عني لقب محي الدين كأنه لم يكن. انتهى[1] .

ثانيًا: مولده ونشأته:

ولد الشيخ محب الدين في مكة يوم الخميس في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ـ ٦١٥هـ ـ خمسة عشرة وستمائة من الهجرة، وقيل في الخامس عشر منه سنة سبع عشرة وستمائة ـ ٦١٧ ـ ولربما هو الصحيح، لأنه منقول عن لسانه، كما ذكر ذلك البرزالي وابن حيّان[2] ، وأنه كانت بينه وبين الشيخ أمين الدين الواني مراسلة فذكر ذلك، ولربما يظن القارئ أن في السؤال عن مولد الشخص تطفل خاصة في الرسائل، لكن كان العلماء يحرصون على ذلك لمعرفة إمكان روايته عن الشيوخ الذين أخذ عنهم، ولتأريخ ذلك، فقد كان ذلك مهمًا في تلك العصور.

وأما عن نشأته فقد نشأ الشيخ محب الدين في بيت علم وشرف وحسب ورياسة، وكان والده وأعمامه ومن بعدهم هم اللذين بيدهم مناصب القضاء والتدريس والخطابة والإمامة في الحرم المكي، وتطاول بهم ذلك نحو ستة قرون، وكان أشراف مكة لا يعادلون بهم أحدًا في المناصب، حتى الصهر والنسب، فكانوا يصهرون إليهم ويتسابقون إلى ذلك، وكانت صلتهم بملوك اليمن أيضًا وطيدة، فقد كان الشيخ محب الدين يرحل إلى المظفر بن المنصور صاحب اليمن وكان يقرأ عليه كتابنا هذا «غاية الإحكام».

ومما يدل على علو مقام الطبريين في مكة أنهم كان يسند إليهم القضاء وإمامة مقام سيدنا إبراهيم دون الرجوع إلى الوالي، وكل من كمل منهم باشر عمله لوقوع الإذن المطلق لهم دون غيرهم، وظلوا على ذلك ستة قرون أو أكثر[3] .

---

(١) العقد الثمين ٣/٦٨، والنجوم الزاهرة ٨/ ٧٤، والمنهل الصافي ١/ ٣٤٢.

(٢) العقد الثمين ٣/ ٦٧.

(٣) خلاصة الأثر للمحبي ٢/ ٤٥٧.

ثالثًا: طلبه للعلم.

في هذا الجو العلمي نشأ الشيخ محب الدين فقرأ على أبيه وأعمامه وحفظ القرآن الكريم صغيرًا، وسمع منهم مبادئ العلم ومن كبار العلماء في ذلك الوقت، حيث كانت البلاد الإسلامية تعيش اضطرابًا سياسيًا وانقسامًا خطيرًا، حتى هرب العلماء من تلك البلاد وأصبحوا يفدون إلى مكة والمدينة مواطن الأمن والأمان، فسمع فيها من أبي الحسن المقير الغدادي سنن أبي داود، وسمع من أبي الحسن علي بن أحمد اليزدي سنن النسائي وبعض الصحيحين، وبعض غريب الحديث، والوسيط للواحدي والفصيح لثعلب، وقرأ على عم أبيه تقي الدين علي بن أبي بكر صحيح البخاري، وقرأ على عم أبيه يعقوب بن أبي بكر سنن الترمذي، وقرأ على شرف الدين بن أبي الفضل المرسي صحيح مسلم وصحيح ابن حبان[١] .

ثم رحل إلى مصر قاصداً الشيخ مجد الدين علي بن محمد بن علي بن وهب القشيري بقوص فقرأ عليه الفقه الشافعي، وقيل: إنه لم يرحل إلى مصر، ولكن الشيخ الفاسي أكد ذلك في العقد الثمين وأنه وصل إلى صعيد مصر، وسمع أجزاء حديثية عن كثير من المشايخ[٢] ، ورحل إلى اليمن أيضًا، وسمع من علمائها، وكذلك أجازه جماعة من بغداد ومصر والشام مراسلة[٣] .

وهؤلاء الشيوخ سنترجم لبعضهم في مطلب خاص بهم. إن شاء الله تعالى.

ثم إن الشيخ محب الدين ظل يرقى معارج العلم حتى أصبح المرجع في بلاد الحجاز كلها وما جاورها، ولما سمع به المظفر ملك اليمن أسند إليه التدريس في المدرسة المنصورية التي أنشأها والده الملك نور الدين منصور[٤] ، ورتب له راتبًا شهريًا قدره خمسين دينارًا، وكانت هذه المدرسة يدرس فيها الفقه الشافعي فطلب المظفر منه أن يدرس الحديث أيضًا، فأصبح يدرس الحديث وظل كذلك أولاده من بعده قرونًا

---

(١) العقد الثمين ٣/ ٦٧.

(٢) طبقات الشافعية للسبكي ٨/ ٢٢.

(٣) العقد الثمين ٣/ ٦٨.

(٤) المدرسة المنصورية التي أنشأها الملك المنصور نور الدين كانت تقع في الجانب الغربي من الحرم المكي، وقد بنيت سنة ٦٤١هـ ينظر شفاء الغرام ١/ ٥٢٣.

طويلة، ثم طلب إليه المظفر أن يحضر إليه ليسمع عليه الحديث، فسافر إلى اليمن وأسمعه كتابنا هذا «غاية الأحكام»[1].

رابعًا: شيوخه.

تتلميذ الشيخ محب الدين على مشاهير علماء الحجاز في عصره، كما سمع من مشاهير العلماء الذين كانوا يفدون إلى الحجاز في مواسم الحج والعمرة، وسنذكر بعض هؤلاء للتعريف بعلماء عصر شيخنا المحب الطبري.

١ ـ ابن المقير: هو الإمام المحدث أبو الحسن علي بن أبي عبيدالله بن المقير النجار البغدادي الأزجي الحنبلي المقرىء نزيل مصر، سمع من معمر بن الفاخر وعبدالحق بن يوسف وشهدة الكاتبة، وحدث ببغداد ثم قدم دمشق، ثم رحل إلى الحجاز وجاور مدة، ثم رحل إلى مصر واستوطن بها، روى عنه المشاهير مثل محمد بن يوسف الذهبي ومحمد بن عبدالكريم المنذري والبهاء ابن عساكر وعبدالله بن عمر الجميزي، توفي رحمه الله سنة ٦٤٣هـ وكان صالحًا زاهدًا[2].

٢ ـ شعيب بن يحيى بن أحمد بن محمد بن عطية أبو مدين القيرواني ثم الإسكندراني المجاور بمكة ولد سنة ٥٦٥هـ وسمع من أبي طاهر السلفي، روى عنه المنذري وبهاء الدين النحاس، توفي رحمه الله سنة ٦٤٥هـ[3].

٣ ـ ابن أبي حرمي، وهو الشيخ المعمر المسند أبو القاسم عبدالرحمن بن أبي حرمي ـ فتوح ـ ابن بنين المكي العطار. ولد سنة بضع وأربعين وخمسمائة، سمع صحيح البخاري من علي بن عمار، ثم ارتحل إلى بغداد فسمع من أبي الفتح بن شاتيل وأجاز له أبو طاهر السلفي، وروى عنه مجد الدين العقيلي والمحب الطبري والحافظ الدمياطي، توفي رحمه الله سنة ٦٤٥هـ[4].

٤ ـ بشير بن حامد بن سليمان بن يوسف بن سليمان أبو النعمان نجم الدين الجعفري التبريزي، ولد بأردبيل سنة ٥٧٠هـ وسمع من عبدالمنعم بن كليب ويحيى

---

(١) العقد الثمين ٣/ ٦٥.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ١١٩، شذرات الذهب ٥/ ٢٢٣؛ النجوم الزاهرة ٦/ ٣٥٥.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٢٦، وشذرات الذهب ٥/ ٢٣١، والنجوم الزاهرة ٦/ ٣٥٩.

(٤) سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٣٦٩، والعبرة ٥/ ٢٢٤، والعقد الثمين ٥/ ٣٩٨.

الثقفي وابن سكينة وابن طبرزد، وتفقه على أبي القاسم بن فضلان، وكان معيداً بالنظامية ثم مدرسًا، تتلمذ عليه الحافظ شرف الدين عبدالمؤمن بن خلف الدمياطي والقطب القسطلاني، ثم ارتحل إلى مكة وعين شيخًا للحرم، وفوض إليه النظر في مصالحه وعمارته في الأيام المستنصرية ولم يزل على ذلك حتى أضر، فانقطع بمنزله يُسمع ويفتي، إلى أن توفى بمكة سنة ٦٤٦هـ ودفن بالمعلاة[١] .

٥ ـ علي بن هبة الله بن سلامة بن المسلم بن أحمد بن علي اللخمي بهاء الدين بن الجميزي الفقيه الورع، ولد بمصر سنة ٥٥٩هـ وحفظ القرآن وهو صغير ثم رحل إلى دمشق فأخذ عن ابن عساكر وقرأ عليه صحيح البخاري، ثم ارتحل إلى بغداد فقرأ القراءات العشر على البطائحي وقرأها أيضًا على ابن عصرون، ثم رجع إلى الإسكندرية فأخذ عن أبي طاهر السلفي، ثم استقر في مصر واعتلى تدريس الديار المصرية ونصب رئيسًا للعلماء وخطيبًا لجامعها، أخذ عنه الزكي المنذري والزكي البرزالي وابن النجار والدمياطي وابن دقيق العيد، توفي رحمه الله سنة ٦٤٩هـ بمصر وكانت جنازته مشهداً عظيمًا[٢] .

٦ ـ يعقوب بن أبي بكر بن محمد بن إبراهيم جمال الدين أبو أحمد الطبري، ولد بمكة في سنة ٥٩٢هـ الفقيه الإمام المحدث أحد فضلاء مكة، روى عن محمد بن علوان بن المهاجر ويونس بن أبي البركات وأبي بكر بن حريم الله بن حجاج التونسي وأبي عبدالله بن محمد بن أحمد مشتري الجنة الغزنوي، وروى عنه المهدوي عبدالله ابن عبدالعزيز، وذكره في كتابه «مجتبى الأزهار في ذكر من لقيناه من علماء الأمصار» وقال: قرأت عليه وسمعت منه كثيراً وأجازني، توفي رحمه الله سنة ٦٦٥هـ بمكة ودفن بالمعلاة[٣] .

هذا وليس من الممكن حصر شيوخ أحد من العلماء خاصة المكيين؛ لأن مكة حرسها الله يرد عليها من العلماء عدد لا يحصى، فإما أن يكونوا حريصين على مقابلة العالم المشهور، وإما يكون هو حريصًا على لقائهم، وفي كلتا الحالتين سيأخذ

---

(١) طبقات الشافعية للسبكي ٨/ ٣٧١ والعقد الثمين.

(٢) طبقات الشافعية للسبكي ٨/ ٣٠١، والوافي بالوفيات ٢٢/ ٢٨٤.

(٣) العقد الثمين ٧/ ٤٧٣.

عن شيوخ لا حصر لهم، وقد يذكرهم في كتبه أو مروياته وقد لا يذكرهم، ومن هنا لا بد من القول أن شيوخ المكيين لا تدخل تحت الحصر، وما نراه في مروياتهم من شيوخ فهؤلاء هم الذين ذكروهم والذين لم يذكروهم كثيرون جدًا.

خامسًا: تلاميذه:

١ ـ علاء الدين أبو الحسن العطار علي بن إبراهيم بن داود بن سليمان الدمشقي الشافعي الفقيه المحدث المتكلم، تفقه بالنووي وأخذ عن المحب الطبري. ولد سنة ٦٥٤هـ، ورحل إلى الحجاز، ثم عاد إلى دمشق وتوفي بها سنة ٧٢٤هـ، وله من المؤلفات شرح عمدة الأحكام وفضل الجهاد، وأصول أهل السنة في الاعتقاد، وترجمة خاصة للإمام النووي سماها: تحفة الطالبين[١] .

٢ ـ الحافظ البرزالي علم الدين أبو محمد القاسم بن محمد بن يوسف بن محمد ابن يوسف الإشبيلي أصلاً والدمشقي سكنًا والمكي وفاة، كان محدثًا فقيهًا مؤرخًا تفقه بدمشق ورحل إلى حلب وبعلبك ومصر، تصدر بدمشق للحديث والإفتاء، والتصنيف، فصنف ثبتًا في مشايخه في بضع وعشرين مجلدًا، وله شرح على تاريخ أبي شامة والمعجم الكبير في الحديث، توفي رحمه الله تعالى بمكة سنة ٧٣٩[٢] .

٣ ـ أبو حيان الأندلسي، وهو الإمام النحوي المفسر المحدث محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان ولد في مدينة مطخارش من أعمال غرناطة سنة ٦٥٤هـ، وأخذ القراءات عن ابن الطباع، والنحو عن أبي الحسن الأبذي وابن الصائغ وابن النحاس، وبرع في ذلك كثيرًا، ثم طلب الحديث حتى أتقنه وفقه الشافعية والتفسير حتى صار فيه إمامًا، وتفسيره المسمى بالبحر المحيط يشهد له، وأجاد كثيرًا من العلوم حتى صار إمامًا، بل صار تلامذته أئمة، وله كتب أخرى مثل إتحاف الأريب، والتكميل ومطول الارتشاف، توفي رحمه الله سنة ٧٤٦هـ[٣] .

٤ ـ شرف الدين الدمياطي: عبدالمؤمن بن خلف بن أبي الحسن ـ شرف ـ بن

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ١١٧، والدرر الكامنة ٣/ ٧٣، وشذرات الذهب ٦/ ٦٣.

(٢) طبقات الشافعية للسبكي ٦/ ٢٤٦، والدرر الكامنة ٣/ ٢٣٧، والدر الطالع ٢/ ٥١، وشذرات الذهب ٦/ ١٢٢.

(٣) شذرات الذهب ٦/ ١٤٥، والدرر الكامنة ٤/ ٧٠، وبغية الوعاة ١/ ٢٨٠.

الخضر بن موسى الحافظ الفقيه الأصولي الأخباري النسابة الأديب النحوي، ولد بدمياط وتفقه بها ثم رحل إلى القاهرة، ثم رجع إلى الحجاز وأخذ عن المحب الطبري ثم رحل إلى دمشق وحلب وبغداد، ثم رجع إلى القاهرة، فتوفى رحمه الله سنة ٧٠٥هـ وكانت ولادته سنة ٦١٣هـ ومن مؤلفاته «فضل الخيل»، و«معجم الشيوخ»، و«الأربعون المتباينة»[١] .

٥ ـ ابن الخبازي العبادي أبو الفداء إسماعيل بن إبراهيم بن سالم نجم الدين الصالحي الحنبلي الحافظ، ينتهي نسبه إلى عبادة بن الصامت الأنصاري رضي الله عنه، أخذ العلم عن الحافظ ضياء الدين المقدسي وعبدالحق بن خلف، وأخذ عنه المزي والذهبي، وغيرهما من الأئمة، له من المصنفات: مشيخة في مائة جزء عن ألفي شيخ، وخرج سيرة لابن أبي عمر مائة وخمسين جزءًا، توفى رحمه الله بدمشق سنة ٧٠٣هـ ودفن بسفح قاسيون[٢] .

٦ ـ قطب الدين القسطلاني أبو بكر بن محمد بن علي بن محمد بن الحسين بن عبدالله بن أحمد بن ميمون بن راشد القبسي المكي الشافعي. ولد رحمه الله تعالى سنة ٦١٤هـ فهو من أقران المحب الطبري إلا أنه أخذ عن المحب وتتلمذ عليه. وكانت ولادته بمصر، ثم رحل إلى مكة وهو ابن خمس ونشأ بها، وأخذ عن علمائها، ثم رحل إلى بلاد الشام والعراق ثم مصر واليمن، حتى برع في الفقه والتفسير والخلاف والحديث، فأخذ هذه العلوم عن ابن حامد التبريزي شيخ الحرم، وعن إبراهيم بن أبي بكر الزغبي وأبي السعادات البندنيجي، له من المصنفات «لسان البيان عن اعتقاد الجنان» في العقيدة، و«المنهج المبهج» في الحديث، و«حمل الإيجاز في الإعجاز بنار الحجاز»، و«جلالة الدلالة على إقامة العدالة»، وغيرها كثير، توفي رحمه الله سنة ٦٨٦هـ[٣] .

٧ ـ ابنه جمال الدين الطبري محمد بن أحمد بن عبدالله بن محمد الشافعي قاضي

---

(١) شذرات الذهب ٦/ ١٢، والدرر الكامنة ٢/ ٤١٧، والنجوم الزهرة ٨/ ٧٠٥، والبدر الطالع ١/ ٤٠٣.

(٢) الدرر الكامنة ١/ ٣٨٦، وشذرات الذهب ٦/ ٨، والوافي بالوفيات ٩/ ٦٥.

(٣) العقد الثمين ١/ ٣٢١، وفوات الوفيات ٢/ ٣٦٦، ومعجم المؤلفين ٨/ ٢٩٩.

مكة، يكنى بأبي عبدالله ـ وبأبي أحمد ـ ولد سنة ٦٣٦هـ بمكة، وسمع من ابن أبي حربي ومن شعيب الزعفراني، أثنى عليه الذهبي والبرزالي وابن أيبك الدمياطي، ولي قضاء مكة عدة مرات في حياة أبيه، وكان فقيهًا لغويًا شاعرًا، توفي رحمه الله قبل أبيه سنة ٦٩٤هـ رحمهم الله أجمعين[١] .

٨ ـ وأخيرًا حفيده أبو حامد نجم الدين محمد بن محمد بن أحمد بن عبدالله بن محمد الطبري المكي الشافعي، أخذ عن جده وتفقه عليه وأفتى في حياته وتولى القضاء كذلك ثلاثين سنة، وكان شديد الحفظ، يروى أنه كان مع جده المحب عند ملك اليمن فالتمسوا من الشيخ المحب نسخة من المحرر للرافعي، فقال: ليس معي نسخة منه ولكن ابني هذا يحفظه وهو يمليه عليكم فأملاه عليهم نجم الدين إلى آخره، فلما وجدوا النسخة قابلوا ما أملاه عليهم على النسخة فلم يجدوا فيها اختلافًا، توفي رحمه الله سنة ٧٣٠هـ ودفن بالمعلاة، وقيل: إن الجن بكت عليه، ورثاه كثير من الشعراء[٢] .

---

(١) العقد الثمين ١/ ٢٩٤.

(٢) العقد الثمين ٢/ ٢٧١.

المطلب الثاني

عصر المحب الطبري

أولاً: عصره من الناحية السياسية:

قدر لشيخنا أن يعيش في القرن السابع الهجري من عقده الثاني (٦١٥) إلى عقده العاشر (٦٩٤)، وكان هذا القرن يشهد انهيار الدولة العباسية، التي لم يكن خلفاؤها آنذاك يحكمون على شيء من بلاد الدنيا ولا حتى القصر الذي يعيشون فيه، حيث كان المشرق قد انفصل عنهم منذ منتصف القرن الرابع ولم يعد الخراسانيون ولا ما وراء النهرين يخضعون لهم من قريب أو من بعيد، وقد قامت دويلات في المشرق لا صلة لها بالخلافة العباسية، وكذلك في المغرب، والمعلوم أيضًا أن الأندلس لم يخضع لهم أصلاً.

أما في المشرق فكانت الدولة الخوارزمية تحتضر وتخسر قلعة وراء قلعة أمام ضربات التتار الذين جمعوا ألف ألف جندي، وهو يستغيث بالمسلمين في كل بلد إسلامي ولكن لم يجبه أحد؛ لأن الكل غارق في همومه ومشاكله ودنياه، وظهرت في الدول الأخرى دول الأتابكة التي كانت تتقاتل فيما بينها ثم سقطت أمام زحف التتار.

فالأتابكة في سنجار سقطوا سنة ٦١٧هـ، وفي كيفا سقطوا سنة ٦١٩هـ، وفي ديار بكر وبكير سقطوا سنة ٦٢٠هـ ثم في أذربيجان سنة ٦٢٢هـ. ثم دولة الخوارزميين التي سقطت سنة ٦٢٨ بعد صراع طويل، ثم سقطت الأتابكة في أربل سنة ٦٣٠، ثم تبعهم الأتابكة في الجزيرة سنة ٦٤٨هـ. وفي بلاد الشام ومصر كانت دولة الأيوبيين تدور في فلك لوحدها وإن كانت تنظر بعينها على الخلافة العباسية وتدعو لها على المنابر فقط، دون أن تمد لها يد العون، وفي لورستان كان الأتابكة أقوياء نوعًا ما، فلم ينتهوا إلا على يد العثمانيين، وأما الأندلس وبلاد المغرب فكانت أسوأ حالاً من الانقسام والتناحر ففي هذا القرن انتهت الحروب بين المرابطين والموحدين، ليواجه الموحدون أمامهم عدوين شرسين: الاضطرابات الداخلية وتمرد النصارى من جهة، والإفرنج الذين ينقضون العهد كلما واتتهم الفرصة من جهة أخرى.

وفي مطلع هذا القرن توقفت انتصارات الموحدين على نصارى الأندلس الذين يمدهم الإفرنج، وكانت آخر معركة بينهم معركة الأرك وتوابعها في نهاية القرن السادس، أما في مطلع القرن السابع ـ عصر المحب الطبري ـ فقد خسرَ الموحدون معركة العقاب سنة ٦٠٩هـ فلم تقم للموحدين بعدها قائمة، ومات بعدها الناصر يعقوب سلطان الموحدين، ثم لما ولي ابنه الثاني لم يصف له الملك وقامت عليه أطراف البلاد وتمردوا، كما تمرد النصارى داخل الأندلس حتى سقطت دولة الموحدين، ثم قامت بعدها دويلات أخرى ظلت تتناحر حتى قضى عليهم عدوهم المتربص بهم.

وأما اليمن والجزيرة العربية فكانت منفصلة عن الدولة العباسية منذ مطلع القرن الرابع الهجري حيث خضعت للفاطميين فترة من الزمن ثم عاشت في اضطرابات كثيرة وتقلبات حتى خضعت بعد ذلك إلى سلطان الأيوبيين، وكان حكام اليمن يخضعون لسلاطين الأيوبيين، فكان بنو رسول الغسانيون سنة ٦٢٥هـ تقلدوا حكم الجزيرة العربية من الأيوبيين وكان ذلك في عهد الملك المسعود الأيوبي الذي كان يحكم مصر والشام وبعض المغرب العربي، وكان علي بن رسول هو الملك المتوج على الجزيرة العربية، ثم قتل سنة ٦٤٨هـ إثر اضطرابات في اليمن، فخلفه ابنه الملك المظفر يوسف بن علي الذي توطدت علاقته مع السلطان قلاوون من المماليك الأيوبية، وانتقل المظفر إلى المذهب الشافعي إرضاء لسلطان المماليك.

والمظفر هذا هو الذي قامت بينه وبين شيخنا المحب الطبري علاقة وطيدة، حتى إنه طلب منه أن يقرأ عليه الكتاب الذي بين أيدينا.

ولما سقطت الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ واجتاح التتار الممالك الإسلامية حتى وصلوا إلى الشام، فر من وجههم كثيرون تجاه مصر، ولم يتوقف زحفهم حتى صدتهم الجيوش الإسلامية بقيادة السلطان مظفر قطز سنة ٦٥٨ في عين جالوت فارتدوا على أعقابهم، ثم تابع السلطان الظاهر بيبرس تعقبهم حتى أخرجهم من بلاد الشام.

وهكذا كان هذا القرن من أحلك القرون التي مرت بالأمة الإسلامية وظل الملك المظفر يوسف بن علي يحكم الجزيرة العربية ـ ومن ضمنها المدينة المنورة ومكة

المكرمة ـ حتى توفي رحمه الله سنة ٦٩٤هـ أي في السنة التي توفى فيها شيخنا المحب الطبري، وكان محبًا للعلم، ثم خلفه ابنه الأشرف عمر، لكن توفي بعد سنتين، ثم خلفه أخوه الملك داود الذي كان محبًا للعلم والعدل، حتى توفي سنة ٧٢١هـ.

إذن لم يخل هذا القرن من اضطرابات في الجزيرة العربية خاصة بين بني رسول وبني الرسي الذين ينتهي نسبهم إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما، ويعتنقون المذهب الزيدي.

فقد استولى على صنعاء منهم المنصور عبدالله بن حمزة سنة ٥٩٤هـ وتوفي سنة ٦١٤هـ وظلوا على ذلك حتى عهد المنتصر داود الذي توفي سنة ٦٨٠هـ ثم خلفهم بعد ذلك جماعة من الرسيين ـ وفي نسبهم شك كما يقال ـ إلى أن انتهوا سنة ٦٠٧هـ وعليه فلم تخل منطقة من البلاد الإسلامية من الاضطرابات المدمرة في هذا القرن، إلا أن نهايته كانت تبشر بالخير بعد الانتصار على التتار، واستقرار الأمر في مصر والشام والمغرب والجزيرة العربية، إلا أن العراق وما وراءها ظلت زمنًا طويلاً تعبث بها الاضطرابات حتى خضعت بعد ذلك للدولة العثمانية، وكل هذا نتيجة لحب الملك والسيطرة، وهذا الحب هو الذي أفقدهم الانتماء الديني فصاروا يتحاربون، وهم يعلمون أن عدوهم المتربص بهم على الأبواب، بل إننا يمكننا القول أن إمارة الصبيان هي السبب في ضعف الحكم الإسلامي وبالتالي يتسلط أصحاب الأهواء المحيطون بالحكام الصغار، وهؤلاء لا يهمهم إلا مصلحتهم الشخصية فقط، وهم الذين كانوا سببًا في انهيار دول إسلامية كثيرة، ولكن لم يع المسلمون هذا الدرس حتى الآن، فما زال هذا العيب موجوداً وسيكون السبب في انهيار دول كثيرة، وهو الآن سبب رئيسي في الحال الذي نحن فيه.

ثانيًا: عصره من الناحية العلمية:

١ ـ كان المسجد في القرون الإسلامية الأولى وما زال هو الرافد الأصلي للعلم والتعلم فكانت حلقات العلم تعقد في المسجد، متحدة أو متعددة، ويقصدها الطلاب من كل مكان، ينهلون من كل ألوان المعرفة والعلوم الإسلامية، وكان الخلفاء والملوك والسلاطين يشجعون ذلك ويحثون عليه، ويجرون الأرزاق على العلماء، إلا أن كل ذلك كان يتفاوت من عصر إلى عصر ومن سلطان إلى سلطان، فمنهم من كان يعتبر

العلماء هم أهم شيء في المجتمع فيعطيه أكثر مما يعطي الوزير أو غيره، ويغدق عليه الخلع والهدايا بما لا يوصف كثرة، كما يقربه كثيرًا حتى يكون من جلسائه وندمائه، ومنهم من هو أقل من ذلك اهتمامًا، وقليل منهم الذي لا يهتم بالعلم والعلماء، وأقل منهم من يعادي العلم والعلماء، بل تكاد لا تجد في التاريخ الإسلامي كله حاكمًا يعادي العلم والعلماء أو يحاربهم، ولم نجد هذا إلا في القرن الأخير الذي ننتمي إليه، وهو قرن يعتبر من أسود القرون بكل الاعتبارات، أما في التاريخ الإسلامي فكان العلم مقدسًا والعلماء مكرمون، بل كان يتنافس عليهم السلاطين ويستقدمونهم إلى بلادهم ويضعون تحت أيديهم كل الإمكانيات.

٢ ـ ثم ظهرت المدارس العلمية المتخصصة التي بناها الحكام والوزراء وجعلوا لها وقفًا خاصًا يصرف منه على الطلبة والمدرسين، وبعض هذه المدارس ما زال قائمًا حتى اليوم لم يتغير، وبعض هذه المدارس أيضًا أنشأها الأثرياء وأوصوا كل من يأتي من بعدهم من الورثة أن يهتموا بها ويجددوها، وهذا النوع ما زال قائمًا يتجدد، ويقيض الله له من يرعاه، ويعلم الطلبة العلوم الإسلامية على المنهج الإسلامي القديم، ومعظم هذه المدارس تكون ملحقة بالمسجد.

وكان عصر المحب الطبري رحمه الله تعالى من الناحية العلمية كذلك، يعتمد الناس فيه على المسجد أولاً، منذ الطفولة حتى الكهولة، ففي الطفولة يتردد على المسجد يتعلم فيه القراءة والكتابة ويحفظ القرآن، ثم ينتقل بعد ذلك بين حلقات التدريس ويتلقى العلم عن جهابذة العلماء، فإن رأى نفسه قد أخذ عنهم ما يريد حمل عصا الترحال يبحث عن العلماء في البلاد الإسلامية.

وإذا وجدت المدارس في البلد الذي يعيش فيه الطالب، فإنه غالبًا لا يقيم في المدرسة، وإنما يقيم فيها الطلاب الغرباء الذين ليس لهم بيوت في تلك البلد، أو يقيم فيها العلماء الرحالة الذين قدموا للأخذ عمن فيها من العلماء، هذا إذا لم يكن الحاكم قد خصص مكانًا مريحًا لإقامة العلماء الباحثين عن العلم، وأما مكة المكرمة فإنها كانت تحت سلطة الأيوبيين ثم المماليك في القرن السابع الهجري حيث بدأ الاستقرار يعرف طريقه إلى بلاد الحجاز المقدسة، والتي حرمت من العناية قرونًا طويلة، إلا أنها في القرن السابع لم يصبها الانهيار مثلما أصاب بغداد ودمشق، حيث

نهبت مدارس ومكتبات دمشق وبغداد.

كما أن المماليك اعتنوا بالحرمين الشريفين من الناحية العلمية والاقتصادية وأنشأوا ـ من ضمن الاعتناء ـ مدارس علمية كان أولها سنة ٥٧٩هـ.

٣ ـ وأما المكتبات فإنها كانت الرصيد العلمي لكل العصور الإسلامية وكلها نتاج علمائنا المسلمين، إلا أنها في القرن السابع بلغت ذروتها، وخاصة في بغداد التي ضربها التتار وأحرقوا الكتب وأغرقوا بعضها حتى عبرت عليها خيولهم، أما الحجاز ومصر والمغرب فلم يصبهم هذا البلاء.

ففي مكة كانت المكتبات قليلة نوعًا ما بالقياس إلى العواصم الإسلامية الأخرى مثل بغداد والقاهرة ودمشق، حيث كانت المكتبة أولاً داخل الحرم الشريف أمام بئر زمزم، ولم تكن مكتبة كبيرة، ثم نقلت بعد ذلك خارج الحرم، لكن بعد التوسعات القديمة دخلت الحرم مرة أخرى[١] ، ثم بناها العثمانيون بباب الدريبة ثم ما لبثت أن دخلت المسجد الحرام أيضًا، وظلت هكذا إلى عهد قريب، حتى إن صاحب التاريخ القويم يقول: إن مكتبة الحرم أنشئ لها لجنة تنسيق وكان هو عضوًا فيها عام ١٣٥٩هـ[٢] .

ثالثًا: عصره من الناحية الاجتماعية والاقتصادية:

يذهب كثير من المؤرخين إلى الربط بين الحالة الاجتماعية والحالة الاقتصادية حسنًا وسوءًا، فإذا حسنت الأحوال الاقتصادية تحسنت الأحوال الاجتماعية، وإذا ساءت الأحوال الاقتصادية ساءت الأحوال الاجتماعية، ولا يمكن أن يكون المجتمع مستقيمًا والأحوال الاقتصادية سيئة، ولكن هذا كلام لا ينطبق على المجتمع الإسلامي في كل العصور والبلدان، خاصة بلاد الحجاز، ومصر والشام إلا إذا كان حكام المسلمين ليسوا بمسلمين، أي لا يتركون للدين أن يحكم كما حصل في الفترة الفاطمية، فإن حكامها عاثوا في الأرض فسادًا وأهملوا الشئون الدينية وغيروا في أحكام الشرع ونهبوا أموال المساجد، وحصل نفور عام بين الدولة والشعب، فأثر ذلك سلبًا على

---

(١) التاريخ القويم ص٢١٩.

(٢) المرجع السابق ص٢٩٠.

الناس، وانتشرت الطبقية، بمعنى أن الحكام والولاة والموظفين الكبار في الدولة هم الطبقة العليا في المجتمع من الناحية المادية والاجتماعية، كما وجدت طبقة أخرى وهي الطبقة الانتفاعية، وهم المؤيدون لهم من طائفتهم من الإسماعيلية والدروز وغلاة الشيعة ومن نافق لهم، والطبقة الثالثة هم عامة الشعب بعلمائهم وتجارهم وصناعهم، لكن إذا أردنا الدقة، فإننا نقول إن المجتمع الإسلامي هو هذه الطبقة، وأولئك ليسو من هذا المجتمع، وإنما هم دخلاء عليه، صحيح أنهم حكموا فترة طويلة، لكن بمجرد أن جاء حاكم قوي مسلم هب الشعب كله لمساعدته واستخرجوا الفاطميين من مصر كأن لم يغنوا بالأمس.

وهذا أيضًا ينطبق على المجتمعات الإسلامية منذ الاحتلال الأجنبي إلى يومنا هذا.

أما المجتمع الإسلامي الحقيقي فلا ينطبق عليه المواصفات التي وضعها المستشرقون وقننوا التاريخ كله على تلك المواصفات، وكل ما يقولونه كلام باطل جملة وتفصيلاً.

أما من حيث الجملة فإنك تجد أسوأ العصور الإسلامية قد عاش فيه الأغنياء والفقراء معًا في تعاون مستمر يقدم الغني ما يملك للفقير، من طعام وشراب، والدليل على ذلك أماكن الطعام الملحقة بالمساجد (التكية) وأماكن الشراب المنتشرة في كل شارع (السبيل) وكل من قطعت به الدنيا وغلبه الفقر لم يكن عليه سوى أن يحمل إناء ويذهب إلى (التكية) فيملؤه طعامًا له ولأولاده، ويملأ إناء آخر من الماء وينتظر بصبره وإيمانه الغد المأمول.

وأما من حيث التفصيل فإننا نجد أن أهم فتوحاتنا وانتصاراتنا الإسلامية ما كانت إلا عندما كان الاقتصاد ضعيفًا. فالمسلمون الأوائل خرجوا ببطونهم الخاوية وقلوبهم العامرة ليفتحوا العالم وينشروا فيه دين الله الذي ارتضاه لعباده وقد كان.

وكذلك عندما صدوا هجوم الصليبيين كانوا في تفرق واقتصاد منهار، لكنهم تمسكوا واتحدوا من جديد وردوا الصليبيين على أعقابهم مندحرين بعد معركة متعبة وتفرق مهلك، وما هي إلا صيحات من قادة الأمة المخلصين حتى اجتمعوا على قائد واحد ليصدوا أكبر هجوم شهده التاريخ، ونقيس هذا على كل الفتوحات الإسلامية واللمحات المضيئة في تاريخ هذه الأمة.

وبهذا يتضح جهل المستشرقين وعدم صوابهم في الحكم على المجتمعات

الإسلامية، ونحن نريدهم أن يظلوا كذلك ليبقوا على جهل بأوضاعنا حتى نباغتهم مرة أخرى، ونطردهم من كل شبر في أرضنا الحبيبة، بل سنباغتهم على حدودهم لنتوغل من جديد، وإذا كنا لم نصل إلى أماكن في الغرب قديمًا، فسوق نصل إليها قريبًا بإن الله تعالى.

مؤلفات الشيخ المحب:

في هذا القرن الذي تكلمنا عنه وفي تلك الظروف العصيبة المحيطة بالدولة، لم يكن شيء يمنع الشيخ المحب عن القراءة والتدريس والكتابة، أو نقول: الكتابة المكثفة، وهو شأن جميع العلماء في كل العصور، حيث لم يكن لهم همٌّ إلا تعويض تراث الأمة الذي أهلكه جموع التتار الهمجيين، ولو أننا أحصينا عدد العلماء في عصور الدولة الإسلامية، ثم أحصينا الكتب التي ألفوها ووضعناها في مكان واحد لكانت من أكبر عجائب الدنيا.

وهكذا عكف الشيخ المحب على التأليف والتنقيح والاختصار والشرح حتى زادت مؤلفاته على المائة، كما قال كثير ممن ترجم له، ولكنا لم نستطيع أن نحصر إلا ثلاثة وعشرين مؤلفًا، هم الذين ذكرهم حاجي خليفة في كشف الظنون.

وها هي مرتبة على حسب الحروف الهجائية:

١ ـ الأربعين في الحج، ذكره في كشف الظنون ص٥٥، وحق لشيخ الحرمين أن يكتب في هذا الموضوع.

٢ ـ استقصاء البيان في مسألة الشادروان. ذكره في كشف الظنون ص٧٩ والشادرون هو الحزام المدعم لأساس الكعبة.

٣ ـ تحرير التنبيه لكل طالب نبيه، وهو مختصر التنبيه، ذكره في كشف الظنون ص٤٩١.

٤ ـ ترتيب جامع المسانيد والألقاب لابن الجوزي، ذكره في كشف الظنون ص٥٧٣.

٥ ـ تقريب المرام في ترتيب غريب القاسم بن سلام. ذكره في كشف الظنون ص٤٦٥، وقال: هو مرتب على الحروف.

٦ ـ خلاصة سيرة سيد البشر، في السيرة النبوية. ذكره في كشف الظنون ص٧١٨.

٧ ـ خير القرى في زيارة أم القرى. ذكره في كشف الظنون ص٧٢٧.

٨ ـ ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى. ذكره في كشف الظنون ص٨٢١.

٩ ـ الرياض النضرة في فضائل العشرة. وهو مطبوع في بيروت مرتين. ومحقق تحقيقًا سيئًا في دبي، حققه كرسالة ماجستير الشيخ عيسى المانع. ولم يكمله.

١٠ ـ السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين، وهو مطبوع في بيروت قديمًا.

١١ ـ سيرة النبي ﷺ. ذكره في كشف الظنون ص١٠٧٩.

١٢ ـ شرح التنبيه للشيرازي في فقه الشافعية. ذكره في كشف الظنون، وقال: هو في عشرة أسفار كبار، وقال عن اليافعي: ربما اختار الوجوه الضعيفة.

١٣ ـ صفة حج النبي ﷺ على اختلاف طرقها. ذكره في كشف الظنون ص١٠٧٩.

١٤ ـ العمدة مختصر المحرر. وينظر المحرر.

١٥ ـ عواطف النصرة في تفضيل الطواف على العمرة، ذكره في كشف الظنون ص١١٧٨.

١٦ ـ غاية الإحكام في أحاديث الأحكام. وهذا هو الكتاب الذي بين أيدينا.

١٧ ـ غريب جامع الأصول لابن الأثير الجزري. ورتب غريبه على الحروف، ذكره في كشف الظنون ص٥٣٧.

١٨ ـ الغناء وتحريمه. ذكره في كشف الظنون ص١١٤٥.

١٩ ـ القرى لقاصد أم القرى، وفيه آداب دخول مكة المكرمة والكعبة. ذكره في كشف الظنون ص١٣١٧.

٢٠ ـ المحرر للملك المظفر. جمع فيه أحكام الصحيحين، ثم اختصره وسماه العمدة. ذكره في كشف الظنون ص١٦١٣.

٢١ ـ مختصر المهذب وسماه (الطراز المذهب في تلخيص المهذب). ذكره في كشف الظنون ص١٩١٣.

٢٢ ـ مختصر التنبيه وسماه (مسلك التنبيه في تلخيص التنبيه) وهو جزء كبير، كما قال في كشف الظنون ص٤٩١.

٢٣ ـ المنثور للملك المنصور. ذكره في كشف الظنون ص١٨٥٨، ولم يعين في أي علم هو.

٢٤ ـ النكت الصغرى والنكت الكبرى على التنبيه، وهما كتابان. ذكرهما في كشف الظنون ص٤٩١.

المبحث الثاني

الكتاب ومنهج المؤلف فيه

وفيه مطالب ثلاثة

المطلب الأول: نسخ الكتاب المخطوطة.

المطلب الثاني: قيمة الكتاب عند العلماء وأقوالهم فيه.

المطلب الثالث: منهج المؤلف في الكتاب.

المطلب الأول
نسخ الكتاب المخطوطة

لما توكلت على الله تعالى وعزمت على تحقيق هذا الكتاب كنت قد عثرت على أجزائه الثالث والرابع والخامس من المكتبة الظاهرية، ولها صورة عنها في المغرب، وكنت أظن أن هذه الصورة ثلاث مجلدات فقط كما هي في الظاهرية، ولكني فوجئت بأنها أربعة مجلدات مضاف عليها المجلد الذي يبدأ بأول الصلاة، فكفاني الله البحث عنه وكأنه هدية من الله عز وجل، ثم لما اطلعت عليها وجدتها بخط مغربي لا كخط الأجزاء الثلاثة.

وابتدأ البحث عن الجزء الأول المفقود، وعلمت من بعض الأخوة أنه في تركيا في مكتبة كوبريلي ـ وهو صورة أيضًا ـ وبعد صعوبات كثيرة استطعت الحصول عليها، فاكتمل الكتاب بين يدي، واستعنت بالله سبحانه وتعالى على تحقيقه وتخريجه، فهي إذن نسخة ملفقة من شامية ومغربية وتركية، لكن بالنظر إلى كتبها وأبوابها نجدها متناسقة كاملة، ليس فيها نقص إن شاء الله تعالى.

وبعد أن انتهيت من طبع هذه الأجزاء كلها علمت أنه يوجد نسخة أخرى في مكتبة المدينة المنورة، وأقدم من النسخة التي بين أيدينا، ولعلها قريبة من عصر المصنف رحمه الله تعالى نظرًا لوجوده في مكة حرسها الله، لكني حتى الآن لم أعثر عليها ولم أطلع على ما فيها، فأسأل الله تعالى أن ييسر ذلك، لنقوم بالمقارنة في طبعة ثانية إن شاء الله تعالى وهذا عزم أكيد إن شاء الله تعالى. والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

المطلب الثاني

قيمة الكتاب عند العلماء

كل الذين ترجموا للشيخ المحب الطبري ذكروا كتابه «غاية الأحكام» وقالوا: إنه كتاب جامع قيم يغني الطالب عن الأمهات من كتب الحديث، ومنهم من وصفه بأنه كتاب يحوي مختصر الكتب أي أنه أخذ مختصر البخاري ومختصر مسلم وهكذا.

وهذه مسألة مفيدة لطالب العلم، خاصة أن أكثر طلاب العلم فقراء، وامتلاك الكتب يحتاج إلى أموال ضخمة وهذا ما يعجز عنه معظم طلاب العلم، ولذلك كان العلماء يهتمون باختصار الكتب للتوفير على المسلمين، ولكنها في نفس الوقت تعتبر نسخة أخرى للكتاب ـ فيما لو فقد ـ فتستطيع أن تتعرف على الكتاب من خلال مختصره.

وعلى النقيض من ذلك فإن بعض العلماء قاموا بشرح الكتب سواء كانت مختصرة أو مطولة، وهي تفيد المتخصص المتبحر، وفي نفس الوقت تكون مرجعًا في مكتبة أو مسجد يهرع إليها العلماء عندما يبحثون عن مشكلة ما، وهي في نفس الوقت نسخة أخرى للكتاب، لكنها نسخة كاملة ـ بعكس المختصر ـ ففي الشرح تجد الكتاب كاملاً مشروحًا، قد قام الشارح بتوجيه كلام المصنف أو ترجمة علم أو تخريج حديث أو الحكم عليه، وهذه فوائد تتراكم في كتب التراث، خاصة التي ألفها الحفاظ المعول عليهم، والذين يعتمد على قولهم. إذن ليس عمل العلماء عبثًا سواء في الشرح أو الاختصار أو الجمع، إذ كل عمل له فائدة خاصة. فجزى الله تعالى علماءنا خير الجزاء.

المطلب الثالث

منهج المؤلف في الكتاب

إضافة إلى ما ذكر المؤلف عن منهجه في مقدمة الكتاب، فإن هذا الكتاب يعتبر جامعًا من جوامع الحديث، جمع فيه المصنف الكتب التي أشار إليها.

لكننا نستطيع أن نقول: إنه اعتمد على كتب من سبقه، وهذا ليس بعيب فالاتباع سنة، والعلم هو أخذ اللاحق عن السابق، والجاهل الذي يدعي الأبتداع والابتكار، خاصة في علم الحديث الذي أفنى الحفاظ فيه أعمارهم.

وبالجملة فإن المصنف اعتمد في البداية على شرح السنة للبغوي، اعتمادًا كليًا وكذلك اعتمد على صحيح ابن حبان (الأنواع والتقاسيم) وهو يعزو إلى هذين الكتابين كثيرًا جدًا، وأضاف كثيرًا من زوائد المصنفين ـ أعني مصنف عبدالرزاق وابن أبي شيبة ـ وكذلك أضاف زوائد الطبراني والبيهقي دون استقصاء.

وأهم شيء في هذا الجمع أنه كان بين يديه نسخ مختلفة عن النسخ المشهورة بين أيدينا اليوم فأفادنا بإضافات كثيرة لا توجد لدينا، فكثيرًا ما يعزو لابن حبان أو البزار حديثًا ولا نجده في النسخ المطبوعة اليوم، بل إنه يضيف لنا أحاديث يعزوها لكتب السنن ونبحث بكل جهدنا فلا نجده بينما نجد المصادر القديمة توافق المحب الطبري على هذا العزو، وليس معنى ذلك إلا أن النسخ التي كانت عندهم فيها إضافات، وهذه قضية لا يعرفها إلا من اطلع على المخطوطات وقارن بين النسخ وأفنى حياته في ذلك، فإذا لم يجد حديثًا معزوًا لأبي داود في نسخ أبي داود التي بين أيديا، قال: لم أجده في نسخنا المطبوعة مثلاً، ولعله في نسخ أخرى.

أما الجاهل الذي يظن أن نهاية العالم هو الضفة الثانية من النهر، فيقول إن هذا المصنف عزا الحديث إلى أبي داود ولم أجده عنده وهو خطأ، ثم يدعي أنه قلب الكتاب مائة مرة، وبحث بحثًا مضنيًا، وهو جاهل باختلاف النسخ وقد يكون جمع بين الجهل وقصر النظر، فربما مر على الحديث ولم يره، وربما لم يطلع وإنما يدعي ذلك ادعاءًا، ولكننا لا بد لنا أن نعترف بفضل السابقين، السابقين في العلم والسابقين إلى الجنة رحمهم الله تعالى ورضى عنهم، وإذا قصروا في شيء فيكفي أنهم السابقون.

الموضـــــــوع	الصفحة